الاستعمار في الأدب الإفريقي
ما بين الموالاة والمقاومة

أ. عمر لي
باحث وروائي - السنغال

كان الأدب الإفريقي قبل الاستعمار الأوروبي في معظم بلدان إفريقيا السمراء محلياً وشفاهياً بامتياز، حيث يتمثل في الحكايات والأغاني الشعبية، بيد أن المناطق التي تشرّبت الإسلام كانت قد بدأت تتعاطى الأدب الأفروعربي قراءةً وكتابةً منذ القرن الثاني عشر الميلادي، وكان الفلانيون قبل الاستعمار ينظمون الشعر بلغتهم اعتماداً على الحروف العربية، نسج على منوالهم جماعات الماندي والهوسا واليوروبا[1].

(١) انظر: كبا عمران، الشعر العربي في الغرب الإفريقي خلال القرن العشرين الميلادي (منشورات إيسيسكو، ٢٠١١)، ص٥٢.

وقد شـــهدت المنطقة تغيُّراً عنيفاً، ومرّت بمراحل متعددة بعد دخول الاســـتعمار من القرن الخامس عشر الميلادي إلى انتهاء الســـيطرة الاســـتعمارية باستقلال الدول، بيد أن المســـتعمر فـــي أدبيّاته ظل يبرر صنيعه بدعـــوى بدائية الأفارقة وحَمْلهم علـــى التحضُّر؛ الأمر الذي أنتـــج أدباً إفريقيّاً مكتوباً بلغات المســـتعمر كردة فعل أســـهمت في ردّ الاعتبار إلى الإنســـان الإفريقي، وكآلة لمقاومة الاســـتعمار الثقافـــي الذي لا يقل ضرراً عن ســـابقه، رغم وجود أدباء أفارقة كتبـــوا أدباً موالياً للاستعمار.

وتأتي أهمية الدراســـة في كونهـــا تتلمس حضور الاســـتعمار في الأدب الإفريقي موالاةً أو تنديداً، وتُبرز مدى أهميـــة الأدب الإفريقي في حفظ الهوية الإفريقية ودرء الاستغراب.

هذا؛ وتتبلور إشـــكالية هذه الورقـــة حول: حضور الاســـتعمار الغربي بنوعيه: الاســـتيطاني والثقافي في الأدب الإفريقي، وتحتوي الإشكالية على عناصر متعددة، يمكن بسطها في الأسئلة الآتية: ما هو الأدب الإفريقي؟ ما موقف الأدب الإفريقي من الاستعمار؟ ما مدى موالاة هذا الأدب للاســـتعمار؛ وما صورها؟ وما مدى مقاومته؛ وما صورها؟

ولمعالجة هذه التســـاؤلات؛ نتبنى المنهج الوصفي التحليلـــي، واضعين خطة منهجية تشـــتمل على مقدمة وثلاثة مباحـــث وخاتمة، يتنـــاول **المبحث الأول**: لمحة تاريخية عـــن الأدب الإفريقي، **والمبحث الثاني**: الأدب الإفريقـــي الموالي للاســـتعمار، ويضم كلاً من الشـــعر والروايـــة، فيما يتنـــاول **المبحث الثالث**: الأدب المقاوم للاستعمار، ويضم الشعر والرواية معاً، إضافةً إلى الأدب المحلي، وفي **الخاتمة**: نتناول النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

المبحث الأول: لمحة تاريخية عن الأدب الإفريقي:

كان الإفريقي قبل اعتناق الإسلام يتعاطى الحكايات التقليدية والأغاني الشـــعبية بطريقة شفهية، وكان هذا الأدب الشـــفهي- بتلقائيته وبساطته حيناً؛ ورمزيته حيناً آخر- محلّياً بحتاً، وتكاد بعض المظاهر تنتشر في معظم مجتمعات إفريقيا السوداء، مثل الخرافة الحيوانية التي يكون للذئب والأرنب فيها حضورٌ بارز عند قبائل شـــتى من إفريقيا.

ظـــلّ الأدب الإفريقي المحلي شـــفهياً إلى أن دخل الإسلام والعربية في المنطقة، وبدأ الشعر الأفروعربي يظهر في القرن الثاني عشر الميلادي بمملكة كَانِمْ[1] مع الشاعر الأسود أبي إســـحاق إبراهيم بن يعقوب[2]، وقد تطور الشـــعر الأفروعربي بتطور المحاضر العلمية في كلٍّ من تُمْبُوكْتُو وجِنِّي[3] وفُوتَ تُورُو[4] المتاخمة لشنقيط وجامعـــة بِيرْ[5] بكَجُـــورْ[6]، إضافةً إلـــى تلك المحاضر التي تشـــعبت عنها. فيما بدأ المسلم الإفريقي يستعين بالحروف العربية لكتابة شـــعر مَحلّي، بيد أن المستعمر فيما بعد اضطرهم إلى استعمال الحروف اللاتينية[7].

أولاً: مراحل الاستعمار:

هذا، وقد مَرّ الاستعمار بثلاث مراحل:

١) **مرحلة الاحتلال**: وهي مرحلة فرض فيها السيطرة بحكم الاســـتعمار المباشـــر، النّاهب للثـــروات الفكرية والمادية.

٢) **مرحلة الاستيطان**: وهـــي مرحلة رســـم خارطة للتعايش السلمي.

---

(١) كانت مملكة كانم (٧٠٠-١٣٨٠) تقع فيما يعرف حالياً بنيجيريا وتشاد وليبيا.

(٢) انظر: كبا، الشعر العربي في غرب إفريقيا، ص٦٠.

(٣) مدينة «جنّي»، تقع في مالي، وفيها معاهد علمية عريقة، ويعود تأسيس أول معهد إلى القرن السادس الهجري.

(٤) تقع «فوت تورو» في شمال إفريقيا، حيث تتاخم بلاد شنقيط، وقد قامت فيها دولة إسلامية سنة ١٧٧٦م.

(٥) تقع مدينة «بير» في قلب «كجور»، وقد تأسست جامعة بير الإسلامية في القرن السابع عشر الميلادي.

(٦) كانت مملكة كجور التي استقلت عن مملكة جلوف (١٥٥٦-١٨٨٦م) تضم رقعة كبيرة، وكان يلقب ملكها باسم داميل.

(٧) المرجع السابق، كبا عمران، ص٥٢.

٣) **مرحلة الاستقلال**: هي مرحلة العنف التي جعلت الشعوب المستعمَرة تقوم بثورات بغية التحرر كليّاً[١].

وفي ظلّ هذه المراحل المذكورة؛ ظل الأوروبيون يحاولون تبرير اهتماماتهم الاقتصادية الرئيسة بتفوقهم العنصري والأخلاقي على الإنسان الأسود، ويصورون إفريقيا بوصفها قارة لا ثقافة ولا تاريخ لها، إنما يشتغل أبناؤها بتجارة الرقيق يأكل بعضهم بعضاً، وأن القارة في حالة حرب دائمة، وأنه ليس لهم مُخلِّص غير الرجل الأبيض الذي جاء لحملهم على التحضُّر[٢].

وإذا كان أدب المستعمِرين لم يخل من تصورات خاطئة نظراً لانطلاقها من نظام كولونيالي، فإنّ قليلاً منهم نجوا من الأحكام المهينة للشعب الإفريقي[٣]. كل هذا وغيره جعل الأدباء الأفارقة يستعملون الشعر والرواية سلاحاً ضد الاستعمار الغربي والاحتقار العنصري، بمن فيهم ليوبُولْد سِيدَارْ سِنْغُورْ[٤]، مع أدباء الكاريبي إيمِي سِيزِيرْ[٥] وليُونْ دَامَاسْ[٦] ورِينِيه مَارَانْ وغيرهم[٧].

وفي هذا الصدد؛ يقول أَشِيلْ مبِيمْبِي[٨] في كتابه (نقد العقل الزنجي): «عند إيمي سيزير، أو شعراء الزنجية مثلاً، كان التحمس «للعرق الأسود» بمثابة صرخة مدوية، وظيفتها إنقاذ ما حُكم عليه بالتفاهة من الانحطاط المنطلق. هذه الصرخة المؤامرة، إعلان واستنكار، تُعبّر عن إرادة العبيد والمستعمَرين في الخروج من الاستكانة، والاتحاد وإعادة إنتاج ذاتيّة، كمجموعة حرّة ذات سيادة، من الأفضل عَبْرَ عملها ومنجزاتها الخاصّة؛ أو فضلاً عن ذلك اعتبار نفسها بمثابة أصلها الخاص ويقينها ومصيرها الخاصّ في العالم»[٩]. ومن هذا المنطلق؛ زعم الكاتب بَابْ مُوسَى سَامْبْ[١٠] أنّ الزنجية ليست إلا تيّاراً أدبيّاً ذا مذهب سريالي، يتناول كُتّابها ورُوّادها المجتمع الإفريقي المفعم بالألغاز والغنيّ بالثقافة الغامرة بالقداسة والجمال، والتي لا تقلّ شأناً عن الحضارة الأوروبية[١١]، ويواصل فيقول: «إن الأدب الإفريقي بمثابة أدب يقصد مقاومة قسوة المُحضِّر في العالم، وخصوصاً في إفريقيا، سيسمح للمرة الأولى أن تصل إلى فرنسا نظرة زنجية حول الزنجي والغربي معاً، تستهدف إعادة النظر إلى الإنسان الأسود بأسلوب ثوري عنيف»[١٢].

ثانياً: ما هو الأدب الإفريقي؟:

يورد لنا نغُوغي وَاثِيُونْغُو[١٣] نقاشاً في ١٩٨٦م عن «الأدب الإفريقي»، ويذكر لنا تساؤلات عدة: ما هو الأدب الإفريقي؟ أهو أدب عن إفريقيا أم عن التجربة

(١) انظر: زهير بختي دحمور، في الرواية الإفريقية، تجليات العرقية في الأدب الروائي الإفريقي (منشورات زخة الشهب للنظر الإلكتروني، ٢٠٢١)، ص٤٦.

(٢) انظر: أحمد طاهر، إفريقيا فصول من الماضي والحاضر (القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٥)، ص١٧٤.

(٣) LilyanKestloot et Andrй Marie Diagne, Prйcis de littйrature africaine antillaise, IFAN-CAD ET FASTEF, 19.

(٤) شاعر بانافريقاني (١٩٠٦-٢٠٠١م)، كان عضواً في الأكاديمية، ورئيساً في دولة السنغال.

(٥) شاعر وكاتب سياسي فرنسي من المارتينيك (١٩١٣-٢٠٠٨م)، من أبرز دعاة تيار الزنجية.

(٦) شاعر وكاتب سياسي فرنسي (١٩١٢-١٩٧٨م)، وكان ممعناً في الهجوم على الاستعمار.

(٧) انظر: عبد الرحمن شلقم، إفريقيا القادمة، دراسة في الفن والأدب والتاريخ الإفريقي (طرابلس، المنشأة العامة للنشر والتوزيع، ١٩٨٢م)، ص٩١.

(٨) فيلسوف وعالم سياسي وأستاذ جامعي كاميروني ولد سنة ١٩٥٧م، فاز كتابه (نقد العقل الزنجي) بجائزة الإخوة شول.

(٩) انظر: أشيل مبيمبي، نقد العقل الزنجي، ترجمة طواهري ميلود (الجزائر، دار الروافد الثقافية، ٢٠١٨م)، ص (٥٨-٥٩).

(١٠) كاتب متخصص في الأدب، وهو يعمل الآن أستاذاً جامعياً.

(١١) Pape Moussa Samb, le nйgre au 21йm Siиcle, presse universitaire de dakar, 2021, p..151

(١٢) انظر: أشيل مبيمبي، ص (١٤٧-١٤٨).

(١٣) كاتب كيني، كان يكتب بالإنجليزية ثم اتجه إلى الكتابة بلغته القومية (الكيكويو)، ولد في ١٩٣٨م.

الإفريقيـــة؟ أهو أدب كتبـــه الأفارقة؟ ومـــاذا عن غير الإفريقـــي الذي كتب حول إفريقيـــا؟ أيقال عن أدبه إنه أدب إفريقي؟ ولو أن إفريقيّـــاً كتب عن غرينلاند مثلاً؛ أيُعتبـــر ما كتبه أدباً إفريقيا؟ أم أن اللغات الإفريقية هي الفيصل؟. حسناً، وماذا عن العربية؟ ألم تكن غريبة عن إفريقيـــا، ماذا عن الإنجليزية والفرنســـية اللتين صارتا لغتين إفريقيتيـــن؟. ولو افترضنـــا أن أوروبيّاً كتب عن أوروبا بلغات إفريقية...[١].

وعلى ضوء هذه التساؤلات؛ نعني بالأدب الإفريقي: ذلـــك الأدب الذي كتبه إفريقي فـــي القضايا الإفريقية بغضّ النظر عن لغته، وقد قسّمنا الأدب الإفريقي إلى:

- **الأدب المحلّي:** وهـــو المكتـــوب بإحـــدى اللغات المحلية.

- **الأدب الأفروعربي:** وهو المكتوب باللغة العربية.

- **الأدب الأفروغربي:** ويضم الأفروفرنســـي المكتوب باللغـــة الفرنســـية، والأفروإنجليـــزي المكتـــوب باللغة الإنجليزية، والأفروبرتغالي المكتـــوب باللغة البرتغالية، والأفروأمريكي الذي لم تتناوله هذه الدراسة.

وجديرٌ بالإشـــارة؛ أن الدراســـة ســـتتناول (الشعر والرواية) فقط، وأنها أحياناً قد تخرج عن حيز (إفريقيا الغربية) لتتناول ذلك الأدب الذي كتبه الإنســـان الأسود من خارج هذه المنطقة إلا أنه يتناول القضايا الإفريقية بعمق إلى درجةٍ يصعب إبعاده عن الأدب الإفريقي.

ومن نافلة القول: أنّ ثمّة تفاوتاً كبيراً بين هذه الأنواع التي توصّلنا إليها، نظراً لتفاوت لغات المستعمِر وطريقة تعامله مع المستعمَر؛ فإذا كان المستعمِر الفرنسي يحمل الأفارقة على اســـتيعاب الثقافة الفرنسية؛ فإن الإنجليز الذين سمحوا للأفارقة بأن يؤسسوا ثقافتهم بأنفسهم[٢]، لم يكونوا يمارسون سياسة التذويب والدمج التي مارستها البرتغال وفرنسا[٣]. على أنّ فرنسا رغم جهودها التذويبية لم تنجب نخباً حاكمة تنفّذ عنها سياســـاتها فحسب؛ بل نجحت في إنجاب نخب سياســـية وثقافية تصادمت مع الأولى واحتجت على سياســـاتها الداخلية، رغم أنها لم تتحرر من سطوة ثقافة المستعمِر ولسانه، مع كل تراثها الوطني المعادي للاســـتعمار[٤]؛ الأمر الذي جعل بعض أدباء المستعمرات الفرنسية يوالون الاستعمار الفرنسي في كتاباتهم، في حين يوجد معادون عنيفون لم يســـلموا من ربقة اللغة الفرنسية ومن ثقافتها.

المبحث الثاني: الأدب الموالي للاستعمار:

ظلّ المســـتعمر الفرنســـي يرمي إلى إنجاز جراحة ثقافية ولغوية ليتكئ عليه المستعمَر، وليحدّ من استقلال شـــخصيته وكيانه، حتى يقتدي بـــه ويتماهى معه[٥]، بل ويجد نفســـه في معرض الثناء على المستعمِر، واعتبار الاســـتعمار عملاً إيجابيـــاً يأتي لتحضيـــر بني جلدته وليبعدهم عن الفوضى التي كانت تسود المنطقة.

هذا، وقـــد عُنيت فرنســـا كثيراً باســـتدراج المثقفين والمؤسســـات الثقافية من خلال حوافز عدة، مـــن قبيل المنح العلميـــة والجوائز الثقافية وتمويل نشـــر إنتاجاتهم المكتوبة بالفرنســـية، أو تمويل نـــدوات ثقافية تلتقـــي أهدافها مع أهداف المؤسســـات الفرنكوفونية، أو محاولة اســـتدراج مثقفيـــن وطنيين آخريـــن تحت عنـــوان التعريف بإنتاجهم لدى القارئ الفرنسي[٦]، وفيما يلي نماذج من الكُتّاب الأفارقة أظهروا ولاءهم للمســـتعمِر في فنَّي الرواية والشعر.

---

(١) انظر: نغوجي واثيونغو، تصفية استعمار العقل، ترجمة سعدي يوسف (دمشق، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، ٢٠١١م)، ص (٢٤-٢٥).

(٢) انظر: ب. س. لويد، إفريقيا في عصر التحول الاجتماعي، ترجمة: شوقي جلال (الكويت، عالم المعرفة، ١٩٨٠)، ص٦٠.

(٣) د. علي شلش، الأدب الإفريقي (الكويت، عالم المعرفة، ١٩٩٣م)، ص٤٩.

(٤) عبد الإله بلقزيز، الفرنكفونية أيديولوجيا. سياسات. تحد ثقافي-لغوي حلقة نقاشية (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١١م)، ص٢٧.

(٥) المرجع السابق، ص١٩.

(٦) المرجع السابق، ص٤٢.

أولاً: الشعر:

كان الشعر حاضراً في الأدب الإفريقي منذ فترة بعيدة، وقد جاء الشعر الأفروعربي ليوازي الشعر المحلي من جهة، وليُسهم في كتابته وتطويره من جهةٍ أخرى، وقد كان المثقفون باللغة العربية في فترة من الفترات بمثابة همزة وصل بين الإدارة الفرنسية والإدارات المحلية، حيث كانت الرسائل يجري تبادلها بالعربية، أو بالمحلية انطلاقاً من الحروف العربية؛ الأمر الذي خلق علاقة وطيدة بين الإدارة الفرنسية وبعض المثقفين باللغة العربية، من بينهم المؤرخ الشهير شيخ مُوسَى كَمَرَا[١] والكاتب المترجم الحاج ابن المِقْدَادْ[٢]، والدكتور عَامِرْصَمْب[٣] وغيرهم، ويأتي الأدب الموالي في صور متعددة، من بينها ما يلي:

١) الثناء على المستعمر للشماتة من خصم محلي:

كان ثمة ثنائية عدوانية بين المستعمِر والمقاومين المحليين، ولم يكن الأديب الإفريقي في وفاق تام مع المقاومين كافةً، كالقاضي مَجَخَتِ كَلَ[٤] الذي قرض شعراً يمدح المستعمر الذي هزم خصمه لَتْجُورْ سنة ١٨٦٤م:

أصادقٌ في ادّعاء الدين «لَتْجُورُ»؟!
أم إنما همّه في ذاك كَجُّورُ
مُروه يُذعن ويخضع كالملوك معا
وهل براز النصارى البيض مقدورُ؟
فللنصارى شؤون من عجائبهم
فلا تقل إن عوض إن أخبرتها زورُ
للهِ دَرّهمُ في كلّ معركةٍ
أميرهم مستطيرُ الشر محذورُ[٥]

وهي قصيدة طويلة استعرض الشاعر فيها قوة الجيش الفرنسي مشككاً في قوة لَتْجُورْ وقدرته على مجابهتهم، وأنه في ادعائه الحفاظ على الدين من جرّاء مجابهته لهذا الجيش؛ كان يهدف إلى بسط سيطرته في كَجُّورْ، وإن كان قد مدحه فيما بعد.

٢) نعت الأفارقة بالبساطة والسذاجة:

في الثلاثينيات من القرن العشرين؛ نُشر للشاعر النيجيري دِنِيسْ أُوسَادِيبي[٦] شعر بالإنجليزية، وقد جاء فيه:

آبائي البسطاء..!
آمنوا بكلّ شيء على طريقة الأطفال
وكلفهم ذلك الشيء الكثير
ولم يكونوا يتساءلون عن أكاذيب السحر
وكان للتمائم عندهم شيءٌ من المنطق[٧]

ويتجلى في هذه المقطوعة تأثر الشاعر بأدبيات المستعمِر الذي يتهم الشعب الإفريقي بالبساطة والبدائية وبالإغراق في عالم السحر.

٣) الافتخار بالمستعمر والترحيب به في المستعمرات:

عند الحرب العالمية الثانية مدح أحمد عيان سي[٨] المرشال بتين[٩]:

نور السيادة يُبدي نور عليك
ولا يزال مقيماً حول مَغناكَ
هذي فرنسا وذي أولادها زُمراً
خفُّوا بمَغناك لا يبغونَ إلاكَا
لبيك يا مرشالَ الحرب فزتَ بما
ترجوه فينا، وقد فزنا بمحياكَا

(١) من مواليد فوت تورو بالسنغال (١٨٦٤-١٩٤٥م)، من كبار المؤرخين في غرب إفريقيا.

(٢) مترجم وأديب سنغالي، ولد في سانت لويس (١٨٦٧-١٩٤٣م)، وكان من الموالين للمستعمر.

(٣) باحث وكاتب سنغالي (١٩٣٧-١٩٨٧م)، وكان مديراً للمعهد الأساسي لإفريقيا السوداء.

(٤) أديب وشاعر سنغالي (١٨٣٥-١٩٠٢م)، وقد ولاه الملك لتجور قاضياً.

(٥) انظر: عامر صمب، الأدب السنغالي العربي، الهدية السنغالية من المرجان في العقود العربية للعربان (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٧٨م)، (٢/ ٥٢-٥٣).

(٦) سياسي وشاعر ومحامي نيجيري، (١٩١١-١٩٩٤م).

(٧) د. علي شلش، الأدب الإفريقي، ص٤٩.

(٨) شاعر سنغالي، من مواليد سانت لويس، (١٩١٣-١٩٨٤م).

(٩) هنري فليب بيتين، (١٨٥٦-١٩٥١م).

منعتَ من جريان البحر من دم من
لولاك قطّع منه الدهرُ أسلاكا
مستعمرات فرنسا أبشروا سيرى
ما كان يأمله هذاك أو ذاكا[1]

وفي هذا؛ نرى أن الشاعر السنغالي يفتخر بمقام المرشال الفرنسي في أرض السنغال، كما لو أنه يشجعه في الحروب التي يقيمها ضد أبناء الوطن، ويزعم كما الموالين الآخرين أن المستعمر الفرنسي حدّ من الفوضى والحروب التي كانت منتشرة في المنطقة، ولا ينهي قصيدته حتى يدعو المستعمَرين إلى الفرح والاطمئنان، ذلك أنّ الاستعمار سيحقق آمال هذا الشعب الذي يرزح تحت نير الاستعمار، هذا مع أن الرماة السنغاليين بعدما عادوا من الحرب العالمية الثانية وطلبوا تعويضاتهم؛ قُتل منهم ما يزيد على ٦٠ في «معسكر تياروي».

٤) دعوى دور المستعمر في فك القيود:

مدح عِيَانْ سِي الجنرال ديغُولْ[2] لمّا زار السنغال سنة ١٩٤٠م:

هذا دغُولْ أتاكم فاضربوا فرحاً
له الدفوف وخلُّوا القيلَ والقالا
يُعدّ في كل حال ما يناسبهُ
فافرح بمقدمهِ واشرح له الحالا
أهلاً بطائرة في الجو تحمل مَن
قد فكّ عن شعبنا قيداً وأغلالا[3]

وفي هذه القصيدة الطويلة، التي أوردنا منها هذه الأبيات، تتجلى نظرة الشاعر الموالية للاستعمار، وزعمه بأنّ المستعمِر إنما جاء ليفكّك الأغلال، وليُحرر الشعب، وإذا كان بعض النقاد يرون أن الشيخ الشاعر كان يتزلف إلى المستعمر لنيل الاستقلال، فإن هذه الأبيات لَتعكس إعجاباً صارخاً بالاستعمار وذويه.

وقد جاءت قصيدة محمد بن الشيخ (أحد شعراء صحراء مالي) لشُكر المستعمِر على الحدّ من الفوضى:

وبلادنا كانت قبيل ورودها
فوضى بحال الشؤم والأكدار
والأمن كان بها محالاً عادماً
والظلم كان طبيعة الكبار
سكانها كانوا بضيق كامل
في غاية الأحزان والإعسار
وتقاتلٌ وتناهبٌ وتحاربٌ
والسبيُّ للآهال والأذرار
والغصبُ للأموال قهراً واغتصا
بُ نسائنا والبيعُ للأحرار
ساق الفرنسا للخلائق رحمةً
فأتت لكشف الضُّر والأضرار
منعوا البلادَ من العدو ونهبه
كفوا يد الغصاب والأشرار
لم يمنعوا أحداً من إقامة دينه
لدين هُم من أكبر الأنصار[4]

والزعم بأن المستعمِر وجد المنطقة في دوامة من الفوضى فأقام فيها الأمن والسلام؛ يتنافى مع تجارة الرقيق التي بلغت ذروتها في خلال القرون الأربعة التي اقتحموا فيها المنطقة؛ حيث وصل إلى العالم الجديد ما يقرب من ١٩ مليون، ويزيد عدد الذين قُتلوا أو ماتوا على ١٠٠ مليون[5]، إضافةً إلى قتلهم المتكرر للدعاة والمعلمين في الكتاتيب، والعمل على الحد من تدريس القرآن والعلوم الشرعية.

٥) الرثاء على أحد رموز الاستعمار:

ذكر الدكتور عامر صمب في كتابه الشهير (الأدب السنغالي) رثاءه للفرنسي ديغول، بعد أن نعته بوحيد دهره، وإكسير عصره، وجبار الجبابرة، في نصٍ يزعم أنه شعرا!:

فجّرت وفاة دغول عيوننا عيوناً

(١) عامر صمب، الأدب السنغالي، (١/ ١١٢-١١٣).

(٢) سياسي فرنسي، (١٨٩٠-١٩٧٠م)، كان رئيساً للجمهورية الفرنسية.

(٣) عامر صمب، مرجع سابق، (١/ ١١٤).

(٤) ٥ كبا عمران، الشعر العربي في غرب إفريقيا، ص (١٧٢-١٧٣).

(٥) أحمد طاهر، إفريقيا الماضي والحاضر، ص٩١.

بل صارت عيوننا جروحاً قد ما بكينا
وأتى بالاستقلال من إفريقيا سودانا
أضحوا بأمر مَن له من المشط أسنانا
أي ظلوا متساوين وأحراراً وإخوانا
فأصبح الملوك ورعاياهم متآخينا
وبمآثره رادفت فرنسا العمرانا
مَن لي برد كتلة ما وكونه مذعانا[1]

وبغضّ النظر عما يحتويه النص من تكلّف وبُعدٍ عن الشعرية وزناً ومعنى؛ فإن وجهة النظر التي تشكر المستعمر على مَنح الاستقلال إنما تنبع من الإعجاب بالمستعمِر وإقلال الجهود التي قادها الأفارقة من أجل استرداد حقوقهم وأراضيهم، لأن الاستقلال ليس أعطية بيد المستعمِر بقدر كونه حقاً للشعب الإفريقي.

ثانياً: الرواية:

ظلّ فن الرواية غائباً في الأدب الإفريقي، إلى أن نشر آمَادُو مَبَاتي جَانْج[2] في عام ١٩٢٠م روايته المعنونة بـ: (إرادات مالك الثلاث)، تلك الرواية الموالية للاستعمار، وقد نسج على منواله روائيون آخرون، وفيما يلي ذكر بعض صور الموالاة:

١) اعتبار الفرنسيين مصدراً للنجاح:

تُعتبر رواية (إرادات مالك الثلاث) أول رواية مكتوبة في غرب إفريقيا، بيد أن هذه الرواية لم تلق قبولاً من المثقفين السود الذين كانوا ضد الاستعمار والعنصرية الغربيّين؛ ذلك أنها كانت تُشيد بفرنسا، وترى أن البطل «مالك» لم يكن ليحقق هدفه لولا تشجيع الفرنسيين ودعمهم للأفارقة[3]، والجدير بالذكر أن الكاتب كان معجباً بالمدرسة الفرنسية، بحكم كونه مدرّساً ثم مفتشاً تربوياً.

٢) الزعم بأنّ المستعمر يبث الأمن في المنطقة:

لقد نشر بَاكَري جَالُو[4] الراعي الفلانيّ- الذي هاجر من منطقته ليُجنَّد مع الرماة السنغاليين وليشارك في الحرب العالمية الأولى- في عام ١٩٢٦م رواية أوتوبيوغرافية بعنوان: (قوّة الخير)، ويتجلى في هذا العمل الذي أعيد طبعه سنة ١٩٨٦م انبهار الكاتب بالحضارة الغربية، ويرى مُحَمَّدْ كانْ في مقدمته للرواية أنّ «بَاكَري جَالُو» بثقافته المتواضعة، وبحكم كونه من الرماة السنغاليين، كان معجباً بما لم يفهمه، ومتقبلاً لكل ما يصدر من أسياده، كذلك هو من الذين يزعمون أن لفرنسا دوراً في بث الأمن والسلام في المنطقة، مثله مثل آمَادُو مَبَاتي جَانْج، يظنّ أن فرنسا دخلت المنطقة لا لتُورِّطها في المشكلات، ولكن لتُقدّم لها الحب والخير والصداقة، وأنّ كلّ أسود سليم العقل لابدّ أن يرحب بالأيديولوجية الكولونيالية[5]، بيد أنه فيما بعد توجه إلى الأدب الإفريقي المحلّي، وكتب شعراً باللغتين الفلانية والولوفية، مما يعني ضمناً تطور رؤيته ونزوعه إلى ثقافته ولغته الأم.

٣) الاعتماد على القيم الغربية عند تناول القضايا الإفريقية:

يتبين لكل قارئ للأدب الأفروغربي ظهور الثقافة الغربية بشكلٍ عنيف، ويتجلى في قراءة التقاليد الإفريقية من وجهة نظر غربية، مثل نظرة «النسوية» التي برزت في رواية السيدة مَرِيَامَ بَا[6]، أو تناول قضايا غربيّة على غرار الغربيين، مثل قضية «المثليّة» التي تناولها مُحَمَّدْ مُبوغَارْ سَارْ[7] في روايته (الذاكرة الأكثر سرية للرجال)[8].

---

(١) عامر صمب، مرجع سابق، (١/٢٢١-٢٢٢).

(٢) مفتش تربوي، وروائي سنغالي (١٨٨٦-١٩٧٦م).

(٣) د. علي شلش، الأدب الإفريقي، ص١٣٦.

(٤) من الرماة السنغاليين الذين شاركوا في الحرب العالمية، (١٨٩٢-١٩٧٨م).

(٥) Bakary Diallo, Force-Bontй, les nouvelles йdi-tions africaines, 1985.

(٦) كاتبة سنغالية وحقوقية (١٩٢٩-١٩٨١م).

(٧) روائي سنغالي، ولد سنة ١٩٩٠م.

(٨) فازت الرواية بجائزة غونكور عام ٢٠٢١م.

إضافةً إلى أولئك الكُتّاب الذين سعوا إلى معاداة ثقافة المستعمِر؛ لولا أن تأثرهم بثقافة المستعمِر ولغته يُبعده عن هدفه من حيث لم يشعر.

المبحث الثالث: الأدب المقاوم للاستعمار:

لم يلاق الاستعمار في غرب إفريقيا مقاومة أشد من مقاومة المثقفين باللغة العربية، وكان من بينهم من كتبوا أدباً باللغة العربية أمثال الشيخ عُمَرُ الفُوتيّ تَالْ[1] وغيره، وكان الأدب الأفروعربي من قبيل الرد بالكتابة، وسيأتي بيان صور مقاومة الاستعمار في فنَّي الشعر والرواية، وفي الأدب المحلي:

أولاً: الشعر:

ظهر الشعر الأفروعربي المندّد بالاستعمار منذ القرن الثامن عشر الميلادي، ويتجلى فيه الانتقاد اللاذع للمستعمِرين والتنديد بظلمهم، وهجائهم ومَن والاهم من أبناء المنطقة، كالشاعر المالي عثمان بن حلون الأنصاري، الذي هجا الخونة المتعاونين مع الفرنسيين في قصيدة له، جاء فيها:

وَمَن يُحكِّم كافراً في نفسه
لا غروَ أنْ باءَ بشرٍّ مقتل
وَعْدُ النصارى كذبٌ وعدلُهم
جورٌ ومَيرهم وخيمُ المأكل
وسِلْمُهم حربٌ وبذلُ مالهم
يُقلّبُ بالمكيد والتحيُّل[2]

وإذا كانت البرتغالية أول لغة أوروبية تدخل إفريقيا[3]؛ فإنه لم يصدر أي إبداع شعري بالبرتغالية إلا عام ١٩١٦م[4]، فيما أوصلت الإنجليزية إلى العالم أولى إبداعات الأفريقيين وأغزرها[5]. على أن الأفارقة في المستعمرات الفرنسية أنتجوا في الشعر الأفروفرنسي وأبدعوا فيه في أوائل القرن العشرين[6]، ولا سيما مع المثقفين السود الذين كانوا يعيشون في فرنسا أمثال إيمي سيزيرْ، وليوُونْ دَامَاسْ، وليوبُولْد سيدَارْ سِنغُورْ، وكانوا متشبثين بإفريقيا وتراثها، وكان ليوُونْ دَامَاسْ بديوانه (أصباغ) عام ١٩٣٧م- المتميز بالمرارة الشديدة- أوّل من انتقد الاستعمار وسياسته الثقافية، وقد صادرته الشرطة الفرنسية وأحرقت نسخه، مثلما أصدر سِيزيرْ عام ١٩٣٩م ديوانه (كرّاسة عودة إلى الوطن)، ظهرت فيه لأول مرّة كلمة «الزنوجة» كدعوة احتفالية بالزنج والثقافة الزنجية، فيما تأخر سِنغُورْ عن نشر ديوانه إثر ظروف الحرب العالمية الثانية، وقد كان لكل من بيرَاغُو جُوبْ[7] ودَافِيدْ جُوبْ[8] دورهما، حيث أصدر كلٌّ منهما ديواناً[9].

وفيما يلي طائفة من صور التنديد:

١) كشف خداع المستعمر:

لقد كشف الشاعر الإفريقي كيف كان الرجل الأبيض يبرر الاستعمار عن طريق الدين، ويصوِّر كيف يريدون أن يبقوا مدجّجين بأسلحتهم ويغرُوا الإنسان الإفريقي بالصليب، وفي هذا الصدد يقول دِنِيسْ أُوسَادِيبِي:

أنا لا أملك بندقية.. ولا أملك قنبلة
أنا لم أصلح للحرب بعدُ
جلبتَ لي صليبكَ ثم قذفتَ بي
لقد أصبح قلبي مليئاً بالمرارة
أخبرتني أن أُغمض عيني وأصلّي
لكنكَ كنتَ تسرق أرضي[10]

وأنشد كَارِي تُومَاسْ من لِيبِيرِيَا في الأربعينيات

---

(١) عالم سنغالي (١٧٩٦-١٨٦٤م)، أسس إمارة إسلامية، وكان مقاوماً ضد الاستعمار.

(٢) محمد أبو بكر ميغا، تنديد الاستعمار في الشعر العربي من الغرب الإفريقي.

(٣) د. علي شلش، الأدب الإفريقي، ص٤٥.

(٤) المرجع السابق، ص٤٦.

(٥) المرجع السابق، ص٤٨.

(٦) المرجع السابق، ص٥٥.

(٧) شاعر سنغالي (١٩٠٦-١٩٨٩م).

(٨) شاعر سنغالي (١٩٢٧-١٩٦٠م).

(٩) المرجع السابق، ص (٥٦-٥٧).

(١٠) انظر: د. محمد عبد الغني سعودي، قضايا إفريقيا (الكويت، سلسلة عالم المعرفة، ١٩٨٠م)، ص١٥٧.

يحذّر قومه من البيض:

حذارِ من هؤلاء الغرباء ذوي السِّحن الشاحبة
الذين دنّسوا بأقدامهم النّجسة تراث آبائنا[١]

ومن ديوانه (الساعات الحمراء)، يفضح الشاعر الكاميروني فَرَانسُوَا سنغات-كيو[٢] خداع الغرب، في قصيدةٍ يقول فيها:

قالوا لي:
لستَ سوى عبد أسود
تسعى وتكدّ من أجل سعادتنا
وقد عملتُ من أجلهم
وسخروا مني..!
قالوا لي:
أنتَ لا تصلح لشيء
فلتذهب لتموت من أجلنا
فوق ثلوج أوروبا
وأغرقتُ بدمائي الأرض من أجلهم
فلعنوني وسخروا مني..![٣]

وفي معرض آخر يقول:

جاؤوا في ضوء القمر على إيقاع الطبول
في ذلك المساء كنا كالعادة
نرقص نضحك... مستقبل مشرق
جاؤوا بالحضارة
والكتاب المقدس تحت إبطهم
والبنادق في أيديهم
فتكدس الموت..!
وبكينا..!
وصمتت الطبول..!
صمت عميق كالموت..![٤]

٢) كشف الاستعمار الثقافي وآثاره:

في قصيدته: (الذي خسر كل شيء) ١٩٥٦م يصور دَافِيدْ جُوبْ تغيُّر الأفارقة من جرّاء الاستعمار الثقافي:

وذات يوم خيّم السكون
كأن أشعة الشمس قد اختفت
في كوخي الخالي من المعنى
وراحت زوجاتي يسحقن شفاههن المطلية
على الشفاه النحيلة القاسية
للغزاة ذوي العيون الحديدية
وقد تجرد أطفالهم من عريهم المسالم
لأزياء موحدة منسوجة من الحديد والدم
مثلما انطفأ صوتكم أيضاً
لقد مزقت أغلال العبودية قلبي
بقدر ما مزقت طبول لياليّ، وطبول آبائي[٥]

وفي هذا الصدد يقول الشاعر مُحَمَّدُ الأَمِينْ جَابِي[٦]:

الحرب ليست بالذخائر وحدها
حرب الحضارة والثقافة أخطرُ
لا سيما حرب تدار بحكمة
ووراءها عقلٌ يعي ويفكّرُ
عادوا بغزوتنا حضاريا وللـ
ـفكر المجهز النصيب الأكبرُ
ضاعت جزيرة زنجبارْ ولم تكن
إلا مكاناً بالمعارف يزخرُ
وكذاك تُمْبُوكْتُو التي ضمت مرا
كزَ للعلوم وبالثقافة تفخرُ[٧]

٣) لمس عبث المستعمر بجمال إفريقيا القديمة:

تأتي قصيدة (ضربات مدفع) للشّاعر السنغالي بيرَاغُو جُوبْ للبكاء على إفريقيا القديمة التي عبثت بها أيدي المستعمرين، ومنها:

---

(١) د. علي شلش، الأدب الإفريقي، ص٤٩.

(٢) كاتب وسياسي كاميروني (١٩٣١-١٩٩٧م).

(٣) كاميليا صبحي وآخرون، الشعر الإفريقي المعاصر، مختارات ودراسات (القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٩، ط٢) بترجمة هالة القاضي، ص (٥٩-٦١).

(٤) كاميليا صبحي وآخرون، مرجع سابق، والنص بترجمة كاميليا صبحي، (٥٧-٥٨). (السبب أن الكتاب يحتوي على نصوص لمترجمين مختلفين).

(٥) د. علي شلش، الأدب الإفريقي، ص٦٤.

(٦) كاتب وشاعر غيني (١٩٥٢-٢٠١٦م).

(٧) كبا عمران، الشعر العربي في غرب إفريقيا، ص١٧٥.

أفريقيا..!
أفريقيتي..!
أفريقيا المحاربين الأعزّاء من سافانا الأجداد
أفريقيا التي لجدتي
على ضفاف الأنهار البعيدة
لم أعرفك أبداً
لكن دمك يسري في شراييني
دمك الأسود الجميل يروي الحقول
أفريقيا..
أخبريني يا أفريقيا..!
أهذا هو ظهرك..؟
هذا الذي أغنّي..
هذا الظّهر الذي يتهاوى تحت وطأة الاحتقار
هذا الظهر الذي يرتعد بندبه الحمراء[١]

٤) تصوير ظاهرة الرّق والنّهب: وقد أكثر الفيتوري في هذا الصّدد، يقول في قصيدة:

ولم أزل أذكر لي إخوة
مشوا عبيداً.. تحت ثقل القيود
والسّيد الأبيض من خلفهم
وسوطه ملتصق بالجلود
ولم أزل أسمع أصواتهم
والعرق الدامي يغطي الجباه
والشمس من فوقهم
موقد أحرق حتى العشب
حتى المياه
وحينما قلت: إلى أين هم ماضون؟
قالوا: نحو أرض بعيدة
وحينما قلت: ألن ترجعوا؟
مات الصدى فوق الشفاه البليدهْ[٢]

وفي قصيدته: (حدث في أرضي) يقول:

سفناً تزحم أعماق البحار النازحهْ
سفناً تغدو وأخرى رائحهْ
سفناً مكتظة بالأسلحهْ
وبأبناء بلادي
وبخيرات بلادي
وبتاريخ بلادي[٣]

وفي قصيدته (نقوش على رخام البحر الأسمر)؛ يقول الشاعر السنغالي عبد العزيز لوح مصوراً مأساة الرق في جزيرة غوري[٤]:

يُحكَى عن الوطن المنفيّ في دمه
وعن وجوه الخيام اسّاقطت كمدا
عن الجزيرة
لم تتعب مواجعها
من الهطول
وفينا حزنها اتّقدا
عن «باب لا عودة»
لم يُشفَ بعدُ من الحنين
منذ غياب أول وردة
إذ ظلّ مزدحماً بالعابرين
وهُم قد طوّقوا البحر في الأرواح والبلدا[٥]

وفي قصيدته (وجوه محترقة) يقول الشاعر إبراهيم توري:

وعن (عمر)
وعن تسعين عاماً في العنابر
يرتدي ثوب الحداد
مراسلاً قمر الغياب هناك في «فوت»
يقصّ عليه أرض الله
يبكي..
مَن يواسيه؟
يضمّد حزنه العاجيّ؟

(١) عبد الرحمن شلقم، إفريقيا القادمة، دراسة في الفن والأدب والتاريخ الإفريقي، ص (١٠٠-١٠٢)، مع تصرف في الترجمة.

(٢) انظر: محمد الفيتوري، ديوان محمد الفيتوري (بيروت، دار العودة، ١٩٧٩، ط٣)، ص (٦٩-٧٠).

(٣) محمد الفيتوري، ص (١٠٩-١١٠).

(٤) تمتد الجزيرة على عرض ساحل السنغال، وكان المستعمرون ينقلون العبيد عبر هذه الجزيرة.

(٥) شارك الشاعر بهذا النص في مسابقة أمير الشعراء عام ٢٠٢١م.

يخبره بأوطانٍ؟
وعن طلل بـ«غوري»
حزنه مثلي تماماً في الملامح والمرايا
سال من شفتيه خمر الروح عتّق بالوجوه السُّمر[1]

ويعتبر كبا عمران الشاعر حبيب عبد الله كان الفلاني أشد مقاومة للمستعمر في شعره:

كيف التبادل بين ذئب جائع
في قفزة وقطائع الخرفان
باسم التقدم والنمو تحايلوا
وبما يُسمى وحدة الأهداف في الأزمان
نهبوا الأراضي في المدائن والقرى
وأَدُوا كرائم كلّ فكر باني[2]

ومن مظاهر مقاومة الاستعمار دعوة الشعراء إلى تقديس البَشرة السوداء، ومنها قصيدة (دَامَاسْ):

لن يكون الأبيض زنجياً قَط
لأن الجمال أسود
والحكمة سوداء
لأن التحمّل أسود
والشجاعة سوداء
لأن الصبر أسود
والحديد أسود
لأن السلام أسود
لأن الحياة سوداء[3]

ويذهب الأدب إلى أبعد من هذا ليحلم مَكْسِيمْ نديبيكا[4] في قصيدته (رأيت في منامي):

رأيت فيما يرى النائم جزيرة تقع في محيط الأمل
كما رأيت سفينة نوح
هي جزيرة صافية هادئة
فيها البشر هم فعلاً من البشر
فيها يُعامل السود معاملة إنسانية
فيها يتزاوج الأسود
والأبيض والأحمر دون أدنى تفرقة
كما تتزاوج وتختلط ألوان الشفق
ولا يوجد فيها مالك ولا محروم
هي جزيرة واسعة المدى
فيها تعلو أصوات البشر بالغناء
ولا يشعلون نار الحروب
وفيها يرتفع رنين الضحكات بدلاً من أصوات النحيب
هي جزيرة تختفي فيها لغة القيود
فلا نسمع فيها صوت السلاسل
هي جزيرة لا نسمع فيها لغط الحديث
ولا جدال فيها حول معاني الحرية والعبودية
فيها يكون الإنسان هو الحاكم بأمره
كم تمنّيتُ الحياة في هذه الجزيرة[5]

بيد أنّ الأدب المقاوم لم يكتف بالبكاء على الأطلال فحسب، بل ندب نفسه لتوعية الشعب، كما في قصيدة (يا ضائعةُ) للفيتوري:

أفريقيا.. استيقظي!
استيقظي من نفسك القابعهْ
أكلُّ ما عندك أن تصبحي مزرعهْ
للأرجل الزارعهْ..!
أكلُّ ما عندك أن تلعقي
أحذية المستعمر اللامعهْ..!
أكلُّ ما عندك أن ترقدي
خاملهْ.. خائرهْ...خاضعهْ..!
أكلُّ ما عندك أن تضحكي
هازئة بالقيم الرائعهْ..!
أكلُّ ما عندك أن
تُصدّري قوافل الرقيق..![6]

(١) توري برهام، وجوه محروقة، على الرابط الآتي- تاريخ الزيارة: ٠٥ مايو ٢٠٢٤م-:
https://www.facebook.com/share/DQAwFGEAMcDJr4g6/?mibextid=CTbP7E

(٢) كبا عمران، الشعر العربي في غرب إفريقيا، ص١٧٦.

(٣) د. محمد عبد الغني سعودي، قضايا إفريقية، ص١٥٥.

(٤) مؤلف مسرحي كونغولي، من مواليد ١٩٤٤م.

(٥) ترجمة هالة القاضي، الشعر الإفريقي المعاصر، ص (٤١-٤٣).

(٦) محمد الفيتوري، ص٦٤.

ثانياً: الرواية:

اكتشف الأفارقة فن الرواية في أوائل القرن العشرين، وقد أبدعوا فيه، وحازوا جوائز عالمية، وكما اتجه بعضهم إلى موالاة الاستعمار؛ وُجد من بينهم مَن قاوم الاستعمار بصور مختلفة، نلمسها فيما يلي:

١) إعادة الاعتبار إلى الإنسان الأسود:

لقد ظهرت الرواية المنددة بالاستعمار في الوقت الذي بدأ المثقفون السود يسعون إلى إعادة اعتبار الإنسان الأسود ودحض العنصرية العلمية التي كانت رائجة، وعندما نشر رُونِي مَارَانْ روايته (بَاتُوَالَا) سنة ١٩٢١م، والتي فازت بجائزة غونكور[١] في السنة نفسها، رحب بها البانافريقانيون لما تضمنته من مقاومة الاستعمار من جهة، ووجدوا هذا الإبداع تفنيداً للنّظرة الدُّونية تجاه الزنوج من جهةٍ أخرى.

وقد سار على منواله أدباء أفارقة، أمثال تِشينُو أَتِشيبِي[٢] في روايته (أشياء تتداعى) التي صدرت عام ١٩٥٦م، وتُرجمت إلى ٣٠ لغة، وصورت الحياة الحقيقية للأفارقة، وأكّدت أنّ لهم حضارة عتيقة ذات جذور عميقة، خلافاً لما يزعمه المستعمرون.

مثلما أصدر كَامَارَا لَايْ[٣] روايته (الطفل الأسود)، وقد صدرت عام ١٩٥٣م، ومن ثَمّ نالت جائزة شَارْل فِيلِيُون الأدبيّة[٤] في العام التالي[٥]، تُصوّر هذه الرواية الثقافة الإفريقية، وترسم التقاليد القديمة التي تمُتّ بصلة إلى أعمالهم الروتينية. وفي رواية (سيد من نيويورك)، الفائزة بالجائزة الأدبية الكبرى لإفريقيا السوداء[٦]، عام ١٩٦٥م، نجد نقداً لاذعاً للفرنسيين الذين حُرموا من الحياة الأسرية وغاب فيهم احترام السّن[٧]، خلافاً للمجتمع الإفريقي؛ مما يعني ضمناً أن الرجل الأسود ليس بأقلّ حضارةً من الرجل الأبيض.

وقد سعى الروائي الكاميروني فِيرْدِينَانْد أُويُونُو[٨] في رواياته الثلاثة إلى انتقاد الحضارة الغربيّة بكل فكاهة وسخريّة[٩]، كلّ ذلك لإعادة الاعتبار إلى الثقافة الإفريقية القديمة. وعندما صدرت في عام ١٩٥٦ رواية (مسيح بومبا الفقير) للكاميروني مُونغُو بِيتِي[١٠]، أثارت ضجّة في فرنسا بسبب نقدها العنيف للسياسة الفرنسية، والتبشير في إفريقيا[١١]. وفي روايته (إكليل زهور من أجل دومو) يخاطب بِيتِرْ أَبْرَاهَامْز[١٢] إفريقيا: «أيتها الأم إفريقيا، يا أمي إفريقيا، سأجعل شمس الحرية تسطع فوقك مرّةً أخرى... سأجعلك عظيمة بين أولئك الذين ينظرون إليك الآن من عَلُ، إنهم لا يفهمون أساليبك السمراء، وما أنت عندهم إلا شيء واجب الاستغلال، وما أبناؤك إلا

(١) جائزة معنية بالأدب المكتوب باللغة الفرنسية تمنحها أكاديمية غونكور سنوياً.

(٢) كاتب نيجيري (١٩٣٠-٢٠١٣م).

(٣) روائي غيني (١٩٢٨-١٩٨٠م).

(٤) جائزة أدبية سويسرية.

(٥) د. علي شلش، الأدب الإفريقي، ص١٤٣.

(٦) هي إحدى أهم الجوائز الأدبية المخصصة لأدب إفريقيا السوداء المكتوب بالفرنسية.

(٧) المرجع السابق، ص١٤٢.

(٨) روائي كاميروني (١٩٢٩-٢٠١٠م).

(٩) المرجع السابق، ص١٤٦.

(١٠) كاتب كاميروني (١٩٣٢-٢٠٠١م).

(١١) المرجع السابق، ص (١٤٩-١٥٠).

(١٢) أديب وشاعر من جنوب إفريقيا (١٩١٩-٢٠١٧م).

كائنات واجبة الإذلال، لابد أن ينتهي هذا الآن، سأنهيه إذا ساعدتني...»[١].

٢) تصوير النهب والرق:

تلتقي الروايات الإفريقية في تقاطعات كثيرة، فبينما تتناول رواية قضية إفريقية تمس الهوية والاستعمار الثقافي؛ نجد أنها في الوقت نفسه تعالج تارةً مظاهر النهب في المستعمرات، فكما عالجت رواية «زوارق الموت»[٢] قضية الهجرة غير الشرعية؛ فإنّها تعالج قضايا النّهب والرق والاستغلال، وقد جاء في معرض تصويرها لجزيرة غوري:

«كان المحتلّ الغربي يعلم أنّ هذه الجزيرة التي جعلوها جزيرة العبيد هي الجزيرة الأقرب إلى المدن الأوروبيّة في إفريقيا. وقد ظلّت الجزيرة خلال أربعة قرون كفتاة فقدت أهلها، فتاة منزوية بدون حصن، يأتيها رجالٌ شهوانيّون قذرون، لا يتمتّعون بتلك الإنسانية النّابضة ولا بذاك الحياء اللّبق، ولا بتلك الكرامة العتيقة، يتخاصمون فيما بينهم للاحتكار عليها، ومن ثَمّ يزّنون بها، ويكدّرون صفاءها، ويلعبون بأنوثتها، من دون أن يشعروا بالخجل. وستظلّ القوّات الغربيّة تتنافس فيما بينها لتحظى بأحقيّة استعباد أبناء الوطن وفرصة بيعهم في سوق النّخاسة، يقولون إنّه تمّ بيع عشرات الملايين من العبيد في غضون أربعة قرون»[٣].

وفي معرض آخر يصف العنابر التي كان المستعمر يخيّم فيها الرقيق قبل ترحيلهم إلى العالم الجديد: «كان العنبر يحتوي على نساء من بقاع شتّى من غرب إفريقيا، وكانت المرأة تنظر إلى جارتها كما لو أنّها تريد أن تشاطرها حزنها أو تحكي لها سبب استعبادها، لكنّها لن تجد لغة مشتركة للتّفاهم معاً، كانت لغة الأنين هي السّائدة في الغرفة، وهي الوحيدة التي كُنّ يشتركن فيها، سيتوجّب عليهنّ أن ينعتقن من لغاتهنّ الأمّ، لم يعد للفُلَانِيَّة ولا الوُلُوفِيَّة ولا الهوسَا ولا السُّونِينْكِيَّة مكان في هذا العالم الجديد، ولم تعد للثقافات التي تحتويها هذه اللغات أيّ حياة، ولعلّهنّ سيتخلّين عن دينهنّ شيئاً فشيئاً»[٤].

٣) كشف هدف المدرسة الجديدة (الغربية):

استطاع الأدباء الأفارقة أن يعيدوا الاعتبار إلى الإنسان الإفريقي بفضل أعمالهم التي نالت الجوائز العالمية، وبفضل النظريات العلمية التي توصل إليها المؤرخون والأنثروبولوجيون أمثال شِيخْ أَنْتَ جُوبْ[٥]. ولما استقلت المستعمرات ظلت المدارس الغربية في الصعيد الإفريقي تثير انتباه الأدباء، ولعل رواية (المغامرة الغامضة) أول رواية تعالج المدرسة الفرنسية بطريقة نقدية، فيرى أحد شخوصها أن لا مناص من الذهاب إليها، وأن هذه المدرسة تُنسي الإفريقي الكثير من ثقافته ودينه: «إذا قلت لهم أن يذهبوا إلى المدرسة الجديدة؛ سيهرولون زرافات ووحداناً، وسيتعلمون كل فنون جعل الخشب يلتصق بعضه ببعض،

(١) المرجع السابق، ص (١٥٩-١٦١).

(٢) رواية زوارق الموت فازت بجائزة ببلومانيا للرواية عام ٢٠٢٣م.

(٣) عمر لي، زوارق الموت (القاهرة، ببلومانيا للنشر والتوزيع، ٢٠٢٤م)، ص٨٥.

(٤) عمر لي، المرجع السابق، ص٧٩.

(٥) كاتب ومؤرخ وسياسي سنغالي (١٩٢٣-١٩٨٦م).

والتـــي نجهلها نحن، ويتعلمـــون نعم، لكنهم سينسون شيئاً. أيساوي ما سيتعلمونه ذلك الذي سينسونه»[١].

وفي معـــرض آخر: «فالمدرســـة التي أدفـــع إليها أولادنا ســـتقتل فيهم ذكرياتنا، وقد يحـــدث أن ننكرهم حيـــن يعودون من المدرســـة، أما الذي أقترحه فهو أن نقبل موتنا في أطفالنـــا، ثم يأتي الأجانب الذين هزمونا ليحلوا محلنا فيهم، ويأخذوا المكان الذي أخليناه»[٢]. لكنه رغم قلقه الشـــديد يلمس ضرورة الاســـتفادة من المدرســـة: «إنهم يدمّرون ويُعمّرون في آنٍ. وفي القارة السوداء بدأ الناس يفهمون، بعد أن أفاقوا، أنّ مكمن قوّتهم ليس في مدافع أوّل الصّباح، ولكن فيما تبع ذلك. ومن وراء المدافع (...) المدرسة الجديدة، والمدافع، والمغناطيس في الطبيعة. وبالمدفع تمســـك المدرســـة بســـلاح الحرب الفعّال، لكنهـــا أفضل من المدفع، تحقق النصـــر وتكرس الاحتلال، المدفع يرغم الأجسام، أما المدرسة فتصوغ العقول وتكيّف النفوس»[٣].

وفي رواية (الذّاكرة الأكثر سرية للرجال) يزعم أحد الشّخوص أنّ المدرسة أصبحت سلاحاً للدفاع عن الحضارة الإفريقية: «كان من أحلام والد، كمـــا أن يذهب أحد أبنائه على الأقـــل إلى مدارس الرجـــل الأبيض، لا ليقلدهم، لكن ليدافع عن نفســـه عندما يزعمون بأن طريقة حياتهم ليست فقط هي الأفضـــل، وهو محل نظـــر، بل هي وحدها الأفضل»[٤].

بيد أننا في معرض آخر نجد استسلاماً تجـــاه الثقافـــة الوافدة، ومن هنا يســـتوي الذهاب إلى المدرســـة وعدمه: «لقد غلبوا على ثقافتنا، فالشـــوكة مغروزة في الجسد، ولا يمكن اســـتئصالها بـــدون موتنا، لكننا نستطيع أن نعيش معها، ونتركها في جسمنا، كميدالية، كندبة، كشـــاهد، كذكرى مؤلمة، كعلامة تحذير تجاه الأشواك القادمة، والتي قد تكون بأساليب أخرى، بألوان أخرى، وإن كانت هذه الشـــوكة قد أصبحت الآن جزءاً من جرحنا، أي من حياتنا»[٥].

٤) كشف الفجوة التي أثارها المستعمرون بين المواطنين:

في عـــام ٢٠٢١م فازت روايـــة (الذاكرة الأكثر سرية للرجال) بجائزة غونكور، ويعالج الروائي مُحَمَّد مُبوغَارْ سَارْ قضايا متعددة، ولعـــل أهمها ســـوء التفاهم بيـــن توأمين متماثلين، وإذا دققنا في أحداث الرواية نجد أنه اســـتعمل هذا الصراع الحادّ والمحتدم بين التوأمين للدلالة على أثر الاستعمار في إنشـــاء صراع حادّ بين المواطن الذي تعلم الفرنسية وتشـــرب الثقافة الغربية (حسن كُومَاخ، الذي تغير وضحّى بنفســـه وأسرته للمشاركة في الحرب مع فرنسا)، والمواطن المحافظ الذي اكتفى بثقافته والتعلم الديني (حســـين كوماخ، الذي ورث علـــم أجداده وراعـــى ثقافته وحافظ على دينه رغم علمه

(١) شيخ حامد كان، المغامرة الغامضة، ترجمة محمد سعيد با (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠١٢م)، ص٧٢.

(٢) شيخ حامد كان، مرجع سابق، ص٧٢.

(٣) المرجع السابق، ص (٧٥-٧٦).

(٤) Mouhamed MbougarSarr, la plus secrиte mй-moire des hommes, Paris, Editions phillipe Ray, 2018, 135.

(٥) المرجع السابق، ص١٣٥.

الضئيل لدينه)، ولاسيما عندما يشتركان في حب موســـان بطريقة مغايرة (مُوسَـــانْ، قد تمثّل هذا الوطن الذي سوف يصاب بالجنون من شـــدة الصراع الذي يحـــوم في أرجائه، ومـــن ثَمّ ينطوي ثم يختفـــي)، ثم إن إصابة التوأم المحافظ بالعمى قد يعني عدم قدرته على الاطلاع على المســـتجدات التي جاءت من الغرب! لكن قد يعني أن احتقار المواطن الفرنسي (حسن كوماخ) لثقافته ودينه وأهله ووطنـــه، فـــراراً وراء فرنســـا أو الحضارة الغربية، هي نتيجـــة واقعية وظاهرة قائمة (حتى إلمانْ نفســـه حاول الفرار من ذاكرته وثقافته عندما سافر إلى فرنسا)، مثلما يمثّل هذا التغرّب مفارقة عجيبة تحمل الوطن إلى الجنون والاختفاء فراراً من المواطن، لكن ما الذي ارتكبه هذا الوطن حتى يُخذل هكذا؟!

ثالثاً: الأدب الإفريقي المحلي:

كان الأدب الإفريقي المحلي حاضراً قبل ظهور الأدب الأفروغربي، وكان يمثّل الثقافة الإفريقيـــة العتيقة نظراً لمـــا تحمله اللغة من حمولة ثقافية، ومـــا تتضمنه من أمثال شعبية تعكس الهوية الإفريقية، بيد أن هذا الأدب المحلي كان شفاهياً فقط، وقد ذكر الدكتور كبا عمران نماذج من الشعر المحلي المكتوب يعود إلى القرن التاسع عشر، ولم يتخذ طابعاً ثورياً علـــى الثقافة الغربية إلا في وقت متأخر، عندمـــا بدأ بعض الأدباء يرون ضـــرورة الكتابة بلغاتهم المحلية التي تفـــي بثقافتهم وتقاليدهم، يقـــول انُغوغِي: «صرت أدرك، مع مَرّ السنين، أنّ أيّ عمل، حتى العمـــل الأدبي الإبداعـــي، ليس نتاج عبقرية فردية، إنمـــا هو نتاج جهد جمعي. فتمت تزويدات كثيرة في التشـــكل الفعلي لصـــورة ما، لفكرة، لمحاجّـــة، بل حتى في الترتيب الشكلي أحياناً. الكلمات ذاتها التي تستخدمها هي نتاج تاريخ جمعي»[١].

وعليه؛ فإن الكاتـــب الإفريقي كي يكون وفيـــاً مع تراثه فلابد أن يكتب بلغته، ويبقى أن يُترجـــم العمـــل إلى اللغـــات الأوروبية: «باعتبـــاري كاتباً يؤمن بالإفـــادة من الفكر الإفريقي، والفلســـفة الإفريقية، والفولكلور والخيال الإفريقيين إلى أقصى حدٍّ ممكن، فإنـــي أرى الطريقة الوحيدة لاســـتعمالها بصورة فعّالة، هي في ترجمتها ترجمة شبه حرفية من اللغة الإفريقية المستخدمة لدى الكاتب؛ إلى أية لغة أوروبية اعتاد استعمالها واسطة تعبير»[٢].

بـــدأ انغوغـــي واثيونغـــي حياتـــه الأدبية بالإنجليزية، وكان يوقّع باسم مستعار، ثم انتقل إلى لغتـــه الأم، وقد ظهرت أولـــى رواياته عام ١٩٦٤م بعنـــوان: (لا تبك أيها الطفل)، وفي عام ١٩٦٧م نشر رواية (حبة قمح)[٣].

فمن سنة ١٩٧٧م كتب كتاباته بلغة الكيكوبو، مثل روايته (شـــيطان على الصليب)، وقد كتب قبله تُومَاسْ مُوفُولُو بلغة السُّـــوتُو رواية بعنوان (مسافر الشوق) عام ١٩٠٧م[٤].

هذا، وقد ذكر الدكتـــور كبا عمران روايات كُتبت بلغات محلية، مثل (أعشاب ملتهبة)، وهي رواية فلانية من نيجيريا الشـــمالية، و(الصياد الجريء في غابة العفاريت) من يوروبا، (وقصب المخيم)[٥]. مثلما كتب بِـــرُو دُورُو جَالُو[٦] رواية

(١) نغوجي واثيونغو، تصفية استعمار العقل، ص٩.
(٢) المرجع السابق، ص٢٨.
(٣) كاتب من لوزوتو بلغته المحلية (١٨٧٦-١٩٤٨م).
(٤) د. علي شلش، الأدب الإفريقي، ص١٢٧.
(٥) كبا عمران، ص (٤٩-٥٠).
(٦) كاتب سنغالي باللغة الفلانية (١٩٤٧-٢٠٠٦م).

بعنوان (الشيخ والربابة) سنة ١٩٩٣م، وتُرجمت إلى العربية، كذلك أصدر الروائي بُوبَكَرْ بُوريسْ جُوبْ[١] روايتين بالولوفية.

كلّ ذلك نتج ثورةً على الثقافة الفرنسية، وإحياءً للتراث والثقافة المحليّين من جهةٍ أخرى؛ الأمر الذي يجعلنا نزعم أن الأدب المحلي هو الذي يعكس الثقافة والقيم الإفريقيتين، فالشكل الأدبي في حدّ ذاته ثورة على لغة المستعمر، وتنديد بثقافته.

وينضاف إلى هذا: الشعر المحلي الذي كتبه الشيخ موسى كاه في مدح الشيخ أحمد بمبا، والأغاني الدينية التي ينشدها الصوفيون بلغاتهم المحلية، والتي تعمل على حفظ الهوية الإفريقية، والقيم الدينية، إضافةً إلى الراب السنغالي الذي يمتاز ببلاغة فائقة، على أن هذا الأدب المحلي لا يكاد يُستهلك إلا في إطار ضيق؛ بخلاف الآداب التي كُتبت بلغات أخرى، إلا أنه لابد من الاعتراف بأن إنتاجات الأدب باللغات الأخرى أسهمت كثيراً في مقاومة الاستعمار وإعادة الاعتبار إلى الإنسان الإفريقي.

الخاتمة:

لقد كان الأدب الإفريقي لا يتجاوز اللغات المحلية والعربية، ولما اقتحم المستعمر المنطقة أخذ يبرر النهب والقتل بدعوى حَمْلهم على التحضُّر؛ الأمر الذي جعل قضية الاستعمار حاضرة في الأدب الإفريقي بغضّ النظر عن لغته ونظرته ومنطقته.

ومن خلال هذه الدراسة توصلنا إلى الاستنتاجات التالية:

أن الأدب الإفريقي هو الأدب الذي كتبه إفريقي في قضية إفريقية، سواء كُتب باللغات المحلية أو العربية أو الغربية، وأن ثمة صوراً من الموالاة للاستعمار الغربي، من قِبَل أدباء المنطقة أنفسهم، أثبتوها في فنَّي الشعر والرواية، فيما وُجدت صور لمقاومة الاستعمار، تتمثل في الشعر والرواية وفي الأدب المكتوب باللغات المحلية.

كما اتضح أيضاً من خلال الدراسة أن الاستعمار الثقافي المتمثل في المدرسة واللغة كان يحتل حيزاً مهماً في الأدب الإفريقي المندِّد بالاستعمار، وإن كان هذا الأدب نفسه لم يسلم من ربقة لغة المستعمر، مما جعل بعض الأدباء يثورون على لغة المستعمر، ويكتبون بلغاتهم، على أننا نرى أن الرد بالكتابة كان له دوره البارز في ردّ الاعتبار إلى الإنسان الإفريقي، وتوعيته، وحمله على حفظ هويته وثقافته.

وزبدة القول: إن الأدب الإفريقي زاحم الآداب العالمية، وأحرز جوائز أدبية تعكس قيمتها الفنية، كما أسهم في تقديم الثقافة الإفريقية إلى العالم، وإذا كان ثمة موالون للاستعمار، انطلاقاً من دوافع متعددة، فإن الأدب المقاوم للاستعمار نجح في إقصاء الدونية، والاعتزاز بالزنجية والهوية الإفريقية، وإن كنا نرى أن الأدب المكتوب باللغات المحلية أشد وفاءً للثقافة والهوية الإفريقيتين ■

(١) روائي سنغالي، كتب بالفرنسية قبل أن يكتب بالولوفية، من مواليد ١٩٤٦م.